بسم الله الرحمن الرحيم

٦٣ — سورة المنافقون

مدنية وآيها إحدى عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ)

[٢] (ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ » أى أن الأمر كما قالوه « وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ » أى فى قولهم (نَشْهَدُ) وادعائهم فيه مواطأة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا « ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ » أى حَلِفَهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً » أى وقاية من القتل والسبى ، « فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقه « إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى فى اتخاذهم أيمانهم جُنة ، وصدهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ، لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيماناً) انتهى .

قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله (ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً) غايته أن ماذكره يسمى يميناً ، وليس الخلاف فى تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل مايسمى حلفاً أو قسماً يوجب حكماً . ألا ترى أنه لو قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

[٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى مانُعى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا۟ » أى سرًّا « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مرنوا عليه من التلوّن والتذبذب ورسوخ الهيآت المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ » أى فى الخلوّ عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعامة لشىء آخر .

قال القاشانىّ : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه، فاستنطقه لظنه ذكاءه وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح، لا نفع فيها ولا ثمر، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استعداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابتها .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير[1] : أى يحسب هؤلاء المنافقون، من خبثهم، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كلَّ صيحة عليهم، لأنهم على وجَل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحى على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعَطِبهم .

وقال القاشانىّ : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون فى ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ » قال القاشانىّ : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » أى : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير[1] أى : حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّوْا) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها وأكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أى يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أى : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشانىّ : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكمالات البهيمية والسبعية ، فلا يألفون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكمالات الإنسانية ، لمسخ الصورة الذاتية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

« سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ » قال القاشانىّ لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخرجوهم عن دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ، وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

« هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ » أى : حتى تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشانىّ : لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله ، وبما فى أيديهم عما فى خزائن الله ، فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

« وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » أى : من بيده خزائنهما ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم فى الفسق ، لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ) الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هـذه العبارة ، فغيّرها الله إجلالاً لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لكان غرورهم وجهلهم وشدة ارتيابهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير[1] : عنى بهذه الآيات كلها ـ فيما ذكر ـ عبدالله بن أبىّ ابن سلول. وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ، ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات فى ذلك . وتقدمه الإمام البخارىّ ، فأسندها من طرق . ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق فى غزوة بنى المصطلق : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفره الله بهم . قال : فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه . فازدحم جهجاه وسنان الجهنىّ حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنىّ :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدَث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله ! ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلىغير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذِّن بالرحيل، فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفاً عظيما . فقال من حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ـ حَدَبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحتَ فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال: عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ ! قال : فأنت يا رسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا ، ثم مشى رسول صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ، حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبىّ . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ، فى ابن أبىّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هـذا الذى أوفى لله بأذنه اه .

وكانت غزاة بنى المصطلق هذه ، فى شعبان سنة خمس ، كما فى (زاد المعاد) .

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت فى غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع فى رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائى) أنها غزوة تبوك . ويؤيده قوله فى رواية زهير : فى سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلا، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلًا لم يرتحل منه حتى يصلى فيه . فلما كان غزوة تبوك ، نزل منزلًا ، فقال عبد الله بن أبىّ : فذكر القصة .

والذى عليه أهل المغازى أنها غزوة بنى المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : (دعه لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) .

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جدا . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح فى غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى .

وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله ـ أى ابن جبير ـ إن ذلك كان فى غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبىّ ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك ، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان فى غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال الزمخشرىّ: معنى قوله تعالى:(وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ) الخ أى: الغلبة والقوة، ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لافقر معه ؟

وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ؛ أن رجلًا قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازىّ : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكِبْر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمودة . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى[1] (بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الكبر .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[١١] (وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ» أى: لايشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده، أو ذكر ماأنزله وأوحى به. ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فإن مقتضى الإيمان أن لايبالى المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» أى المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته، كما قال سبحانه[1] (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ) . « وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ » أى أتصدق وأخرج حقوق مالى « وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا » أى لن يؤخر فى أجل أحد إذا حضر ، ولكن يخترمه .

قال القاشانىّ : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ) إن صدقتم فى الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شىء، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة فى قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطرىّ بإضاعته فيما يفنى سريعا ، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة فى أنفسكم ،

(١) [٥٩ / الحشر / ١٩] .

وهيأة نورية لها، فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد فى النفس. فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إنفاقه ، وليس له إلا التحسر والتندم ، وتمنى التأخير فى الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً فى دعوى الإيمان ، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضرورىّ ، وأنه مقدر فى وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا يمكن تأخره .

« وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى: بأعمالكم ونياتكم. فلا ينفع الإنفاق فى ذلك الوقت ولا تمنى التأخير فى الأجل ، ووعد التصدق والصلاح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ، ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ، وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المنافية للتصدق والصلاح فى النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى[1] (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهرّاسى: يدلّ قوله تعالى (وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .

وأخرج الترمذىّ[2] عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦٣ ـ سورة المنافقين، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد،